

أدهشت بيكاسو، كرمها كاسترو والشاذلي بن جديد.. وعائلتها تكشف: ميتران عرض على باية الجنسية مقابل التخلي عن جزائريتها

تعود ذكرى رحيل الفنانة التشكيلية **الجزائرية** الكبيرة "باية" هذا العام بنكهة خاصة، حيث تفكر عائلتها في إنشاء مؤسسة تحمل اسمها للحفاظ على موروثها الفني الذي قدم للتشكيل **الجزائري** لوحات لاتزال شاهدة على إبداع أنامل تلك المرأة التي وهبت حياتها للفن، كما اتفق أفراد عائلتها على عدم بيع لوحاتها لغير المتاحف حتى يتمكن الجمهور العام من الإطلاع عليها، في حين رفضت العائلة بيع اللوحات لأشخاص للاحتفاظ بها في المنازل. وولدت ابنة **البيدية** باية محي الدين، واسمها الأصلي حداد فاطمة في الـ 12 ديسمبر 1931 بـ برج الكيفان في العاصمة، ووهبت هذه الفنانة منذ صغرها بهواية الرسم أو ما يعرف بـ "الفن الساذج" الذي كانت مؤسسته في حين كانت سفيرة للمرأة **الجزائرية** في الخارج أثناء الاستعمار الفرنسي. كما عرفت بعد ذلك بلباسها التقليدي **الجزائري** الذي لم يفارقها إلى غاية وفاتها في نوفمبر 1998. فقدت هذه الفنانة والديها وعمرها لا يتجاوز السبع سنوات، وتكفلت جدتها بتربيتها التي كانت تشتغل في حقل للأزهار كان ملكا لأحد المعمرين في **الجزائر**، حيث كانت تأخذ معها "باية" لذلك الحقل يوميا.

وحدث أن طالبت إحدى جارات صاحبة حقل الأزهار تدعى "مارغريت كامينا" من **جدة** "باية" أن تعطىها هذه الصغيرة لتتكفل بتربيتها، فوافقت على ذلك بالنظر إلى ظروف المعيشة الصعبة.

ومن حسن حظ الصغيرة أن المرأة التي تكفلت بتربيتها كان زوجها فنانا.

وحسب الابن الأصغر للفنانة الراحلة عثمان محي الدين الذي نزل ضيفا على "منتدى جمعية الصحفيين والمراسلين" لولاية **البيدية**، فإن اكتشاف موهبة "الفن الساذج" لدى والدته كان مع زوج السيدة التي تكفلت بتربيتها، بحيث أصبحت تقلده في الرسومات واستخدام الألوان، لكن هذا الأخير نصحها بعدم التقليد وإنما رسم ما تتخيله. وتؤكد من خلال رسومات "باية" أن هذه البرعمة تملك موهبة كبيرة في الرسم، فكان أول ما رسمته عبارة عن مزهرية بالورود؛ مما جعلها تبقى متعلقة بحقل الزهور الذي كانت جدتها تشتغل فيه.

فنانة أبهرت العالم بجزائريتها

فتحت "باية" سنة 1947 أعين العالم عليها في أول مشاركة لها بمعرض بقاعة "مآق" وعمرها لم يتجاوز آنذاك 16 سنة، حيث أثارت انتباه الزوار إلى وجود شعب وبلد اسمه "**الجزائر**". وأهم ما ميز الفنانة في ذلك الحفل أنها ظهرت ولأول مرة بلباس تقليدي جزائري، وهو رسالة على وجود شعب جزائري مستقل عن **فرنسا** في رقعته الجغرافية وفي لغته وثقافته. وكتب عنها آنذاك الكاتب الفرنسي "أندري بلوتو" مقالا وقال عنها إنها هي من أسست مدرسة "الفن الساذج". وفي سنة 1948 شرعت "باية" في النحت على "السيراميك" وعادت من **الجزائر** إلى **فرنسا** لإجراء تريبص تطبيقي قصد تطوير قدراتها في النحت على "السيراميك"، وشاءت الصدفة أن تكون "باية" في ورشة مجاورة لورشة الفنان العالمي "بيكاسو" الذي كان يزور الفنانة يوميا في ورشتها وانبهر بأعمالها وشجعها على أعمالها وتنبأ لها بمستقبل واعد. كما طلب "بيكاسو" من السيدة "مارغريت" الاعتناء بها وتنمية قدراتها في النحت والرسم.

وفي سنة 1953 تزوجت الفنانة "باية" بالفنان البليدي الحاج "المحفوظ محي الدين" الذي يعتبر أحد مؤسسي الفن الأندلسي بـ "مدينة الورود". وفي هذا الإطار يقول نجل باية عثمان إن زواج والدته بالفنان الحاج المحفوظ كان تزواجا فنيا، غير أن الملاحظ في هذا السياق أن كلا من "باية" والحاج المحفوظ جمدوا نشاطهما الفني منذ اندلاع الثورة إلى غاية الاستقلال تضامنا مع الثورة **الجزائرية**، في حين كانت الفنانة "باية" ترسم في البيت لكن دون المشاركة في المعارض والتظاهرات، وذلك تضامنا مع الثورة.

ونفى عثمان محي الدين في هذا السياق، أن يكون أباه قد منع والدته من الرسم بعد زواجهما، والدليل على ذلك، حسبه، أن كل لوحاتها الفنية بعد زواجها أصبحت تحمل آلات موسيقية، وذلك تأثرا بزواجها الفنان الحاج المحفوظ.

من ناحية أخرى، شاركت الفنانة "باية" بعد الاستقلال في عدة معارض وطنية ودولية، كما كانت سفيرة المرأة الجزائرية بلباسها التقليدي، حيث نظرت الفنانة بلوحاتها الفنية إلى قدسية المرأة من باب أنها رسالة المجتمع ومربية الأجيال. ولم تتوقف عن الرسم والمشاركة في المعارض حتى وافتها المنية، إذ كانت وفاتها بعد أسبوع فقط من مشاركتها في معرض بفرنسا.

زعماء العالم يكرمون الفنانة

تلقت باية عدة دعوات من رؤساء العالم منهم الرئيس الكوبي فيدال كاسترو الذي خصها بحفل تكريمي، كما كرمت من طرف الرئيس الجزائري السابق الشاذلي بن جديد الذي منحها وسام الاستحقاق الوطني.

وفي سنة 1982 استقبلها الرئيس الفرنسي السابق ميتران وكرمها هو الآخر.

وفي هذا الإطار يكشف نجل الفنانة الراحلة أن السلطات الفرنسية حاولت نسب والدته لها وجعلها فرنسية وإبعادها عن بلدها الجزائر، مؤكداً أن تكريم الرئيس ميتران لها كان يدخل في ذلك الإطار، غير أن "باية" بقيت متمسكة ببلدها الجزائر ورفضت مغادرته حتى في أحلك الأحوال، فمثلا رفضت في منتصف التسعينات مغادرة "مدينة الورد" البلدية رغم التدهور الأمني الذي عرفته هذه الولاية، وتوجه الجماعات الإرهابية إلى اغتيال الفنانين والمتقنين.

ويضيف ابنها عثمان أنه في تلك الفترة زارها السفير الفرنسي بالجزائر سنة 1995 بمنزلها بالبيدة عارضا عليها التنقل للعيش في فرنسا، بينما تتكفل السلطات الفرنسية بإقامتها، لكنها رفضت الأمر.

كما تلقت عرضا آخر من طرف الأمينة العامة لـ "ليونيسكو" وزوجة الوزير الأول السويدي التي زارتها هي الأخرى بالبيت، لكنها بقيت متمسكة ببيتها وعائلتها ورفضت المغادرة.

وحتى أولادها عرضوا على أمهم مغادرة البيدة والتنقل للعيش في العاصمة حفاظا على حياتها، لكنها رفضت ذلك أيضا وبقيت تتحرك بحرية بمدينة البيدة بلباسها التقليدي ولم تخفها آلة الإرهاب.

لوحات خالدة تركتها "باية" يقول عثمان الابن الأصغر للفنانة "باية" إن الشيء الوحيد الذي كانت تتخوف منه والدته هو أن يرحل معها فنها بعد وفاتها، ولهذا كانت توصيه دوما بالحفاظ على هذا الإرث الثقافي، وهي الوصية التي حافظ عليها ابنها مؤكداً أن والدته ذهب جسدها لكن نشاطها الفني بقي ولا يزال متواصلا من خلال المعارض التي لا تتوقف، فلا تكاد تمر سنة دون أن يكون هناك معرض أو نشاط يتعلق بالفنانة "باية" بحيث شاركت العائلة بلوحاتها الفنية في تظاهرة "سنة الجزائر بفرنسا" في 2003 بالإضافة إلى تظاهرة "الجزائر عاصمة للثقافة العربية"، فيما تفكر بتنظيم معرض للوحاتها بفرنسا خلال السنة القادمة.

ويتحدث ابن الفنانة الراحلة قائلاً إن الفن لم يمنعها يوما عن تربية أبنائها تربية سليمة، فكان شغلها الشاغل اتجاه أبنائها هو الدراسة والتربية الدينية.. تميل إلى الصمت والهدوء في بيتها فلا تتحدث سوى عن الفن عندما تجتمع بفانين آخرين لأن الفنان، حسبها، لا يفهمه إلا فنان مثله.. مزاجها كان يظهر من خلال اللوحات التي ترسمها وتستخدم فيها ألوانا دون أخرى.